حافظ وشوقي

صدى الحوادث عند الشاعرين

مرّت بالشرق العربي والعالم الاسلامي عامةً ومصر خاصةً خلال الحقبة التي عاشها الشاعران أحداثٌ وحوادث كان لها أثرٌ قويٌّ في قرائح الشعراء وقتذاك ، فانطلقوا يسجّلونها ، كلٌّ على قدر طاقته ومواهبه ، وحسب الأثر الذي تركه كلٌّ منها في نفوسهم ، فكانت قصائدهم صدى هذه الأحداث وممرض هذه الحوادث . وكان فاحراناص المجلّين في هذه الحلبة .

لذلك نطوي السنين القهقرى حتى هذه الحقبة لنستمع إلى صدى هذه الأحداث والحوادث عند هذين الشاعرين ، ونرى كيف تصرّف كلٌّ منهما فيها بفنّه ومدى توفيق كلٍّ منهما في هذا التصرف . فتبرز لنا في مقدمة هذه الحوادث والاحداث :

حادثة دنشواي

في ١٣ من يونيه سنة ١٩٠٦ وقعت هذه الحادثة حيث ذهب بعض الضباط والموظفين البريطانيين لصيد الحمام في هذه البلدة فأصابت رصاصةٌ من رصاصاتهم امرأة وحرقت جُرْناً فتجمع الأهلون غاضبين فاعتدى البريطانيون عليهم بأسلحتهم ، ولكن القوم حملوا عليهم بالطوب والعصيّ وانتزعت منهم أسلحتهم فجُرح بعضهم جروحاً خفيفة ، وفرّ منهم جريحٌ وظلّ يعدو نحو المعسكر حتى أصابته ضربة الشمس بعيداً عن هذه البلدة . وثارت ثائرة الانجليز لهذه الحادثة فعقدوا محكمة عسكرية قضت على واحد وعشرين رجلاً بأحكام مختلفة أُعدم منهم أربعة . وقد صدر هذا الحكم في ٢٧ من يونيه سنة ١٩٠٦ أي بعد الحادثة بأربعة عشر يوماً .

ولقد كان لهذا الحكم الوقع السيء في النفوس ، وأثار الزعيم المرحوم مصطفى كامل سخط العالم على هذا الحكم . وهبَّ بعض النواب الأحرار من البريطانيين يناقشون الحكومة في البرلمان عن هذا العمل المنكر . وكانت حملة مصطفى كامل عاملاً قويًّا لزعزع مركز كرومر فاستقال من منصبه بعد قصير .

تلك حادثة دنشواي التي يقول عنها الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك إنها « من حوادث مصر التاريخية التي لا تنمحي على مرّ السنين لما كان لها من الأثر البليغ في تطوُّر الحركة الوطنية وفي مركز الاحتلال الانجليزي ، فهي نهاية عهدٍ كان الاحتلال يتمتع فيه بالإستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القوميّ عمَّ فيها الشعور الوطنيّ بعد أن كان الظنُّ أن مراد الأمة راضٍ عن الاحتلال »[1] — هذه الحادثة وجدت في شعر حافظ صداها قبل أن تجده في شعر شوقي ، ولا ندري السبب الذي أخَّر شوقيًّا عن تناولها في وقتها ، ولعلَّ منصبه في القصر وصلته به كشاعر ربَّ القصر هما اللذان حالا دون تناوله هذا الحادث حتى حدث من كرومر ما حدث بعد ذلك من إهانته للمصريين والتطاول اسماعيل في الخطبة التي ألقاها في الحفلة التي أقيمت تودِّعاً له . فرأى شوقي أن الجوَّ ملائم لقول في هذه الحادثة بعد مرور عام عليها وذلك بقصيدة طالب العفو عن صاحبتها . وقد نشرت هذه القصيدة بجريدة « اللواء » في ٢٧ من يونيه سنة ١٩٠٧

أما حافظ فقد ردَّد ذكر هذه الحادثة في أكثر من قصيدة ، وكان أول ما نظمه فيها قصيدته الدالية التي نشرت في ٢ من يوليه سنة ١٩٠٦ أي بعد صدور الحكم بخمسة أيام ، وفيها يقول :

جاءَ جهّالنا بأمرٍ وجئتم ضعف ضعفٍ قوةً واشتدادا
أحيوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أرصاصاً أردتمُ أم كيادا ؟
أحيوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أنقوساً أصبتمُ أم جمادا ؟
ليت شعري أتلك (محكمة التفتيش) عادت أم عهد (نيرون) عادا ؟
كيف يحلو من القويّ التشفّي منْ ضعيفٍ ألقى اليه القيادا ؟

(١) كتاب « مصطفى كامل » باعث الحركة الوطنية » للاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك — ص ٢٠٠

إنها مُثْلَةٌ تشفُّ عن الغيـ ـظ ولسنا لفيظكم أندادا

وهذه القصيدة على ما فيها من السخرية التي أرادها في قوله :

وإذا أعوزتكمُ ذاتُ طوقٍ بين تلك الربا فصيدوا العبادا

إنما نحن والحمام سواءٌ لم تفادوا أطواقنا الأجيادا

لم تخلُ من حذر في توجيه الخطاب الى الانجليز ، وكان جديراً أن تكون قاسية كل القسوة لأن الشاعر كتبها بعد صدور الحكم وتفوس المصريين تغلي حقداً وكراهية ، فهو يبدأها بهذا البيت اللين الناعم حيث يقول :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟

ثم يقول فيها :

أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجوادُ الجوادا

أمة النيل أكبرت أن تعادي من يهاها وأهنفت أن تعادَى

في حين أنه تناول « المدعي العمومي » في هذه القضية ، وهو مصريٌّ ، بالنقد الجارح الشديد والتهكم اللاذع المرير . وكان المتعصبون الجناة أولى بمثل هذه القسوة والشدة في النقد والتجريح لأن تهكمه في أبياته التي قالها فيهم لينة وادعة بجانب قسوته على « المدعي العمومي » المصري . حيث قال فيه بعد أبيات لاذعة :

إيه يا صدرَه القضاء وياسن عاد في غفلة الزمان وشادا

أنت جلادُنا فلا تنسَ أنّا قد لبسنا على يديك الحدادا

وفي قصيدة أخرى وجّه القول فيها إلى كرومر وأشار الى ما ادعاه البريطانيون على المصريين من أن السبب في حادثة دنشواي هو التعصب الديني من المسلمين في مصر فهو يدفع هذا بقوله :

إن أرهقوا صيّادكم فلطيم القوت لا للمسلمين تعصبوا

ولربما ضنّ الفقير بقوته وسخا بهجته على من يغضبُ

ثم يصف الشاعر هذه الحادثة في الأبيات التالية ، ويصور هول تنفيذ الحكم فيمن اتهموا تصويراً بلغ حد الروعة ، ثم يسخر في قسوة الحكم الظالم المجحف في تاريخ الأمم ، وما

أصاب المحكوم عليهم من حيرة وذهول أمام هذه القسوة فيقول :

في دنشواي وأنت عنا غائبٌ لعب القضاءُ بنا وعزّ المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلةً فتسابقوا في صيدهنّ وصوّبوا
نُكبوا وأقفرت المنازل بعدهم لو كنتَ حاضر أمرهم لم يُنكبوا
خلّيتهم والقاصطون بمرصدٍ وصياحهم وجحافلٌ تتأهبُ

ثم يقول في لغة عجيبة وتصوير رائع :

جلدوا ولو مُنّيتهم لتعلّقوا بحبال من هُنقوا ولم يتهيّبوا
شُنقوا ولو مُنحوا الخيار لأهلوا بلظى سياط الجالدين ورحّبوا
يتحاسدون على المنيّة ، وكأسُها بين الشفاه وطعمه لا يعذُبُ
موتان : هذا عاجلٌ مستمرٌ يرنو ، وهذا آجلٌ يترقبُ
والمستشار مكانّ برجاله ومعاجلٌ ومناجزٌ ومحزّبُ
يختال في أنحائها متبسماً والدمع حول ركابه يتصببُ

* * *

هاتان قصيدتان من شعر حافظ تناولتا هذه الحادثة ، فأما الأولى فأسلوبها خطابيٌّ تقريريٌّ ، وأما الثانية فتصويريةٌ امتزج فيها الواقع بالخيال ... فلننظر في قصيدة شوقي التي نظمها بعد مرور العام عند طلب العفو عن سجناء هذه الحادثة . وذلك بعد أن استقال كرومر وعاد الى وطنه ، وفيها يقول :

يا (دنشوايَ) على ذُراك سلامُ ذهبتْ بأنس ربوعك الآيامُ
شهداءُ حكمك في البلاد تفرقوا هبات الشمال اتيقيت نظامُ
مرّت عليهم في اللحود أهلّةٌ ومضى عليهم في القيود العامُ
كيف الأرامل فيك بعد رجالها وبأي حالٍ أصبح الأيتامُ
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها بعد البشاشة وحشةٌ وظلامُ
يا ليت شعري في البروج حمائمٌ أم في البروج منيّةٌ ورحام
(فيرون) لو أدركت عهد (كرومر) لعرفت كيف تنفّذ الأحكامُ

ثم يلتفت الى فظائع الحكم في القضية يصوّر هوله فلم يقدّر له أن يبلغ روعة الصورة التي رسمها حافظ — مع قدرة شوقي التصويرية — ويبدو في قصيدة شوقي مدى التأثر بقصيدة حافظ البائية التي ذكرناها ... قال شوقي :

نُوحي حمائم دلشواني وروّعي ... هضباً بوادي النيل ليس ينام
إن ناست الأحياءُ حالت بينه ... سَحَراً وبين فراشه الأحلامُ
متوجعٌ يتمثل اليوم التي ... ضجّت لشدة هوله الأقدامُ
والمستشار الى الفظائع ناظرٌ ... تدمى جلودٌ حوله وعظامُ
في كل ناحيـــة وكل محلة ... جزعاً من الملإ الأسيف نزحامُ
وعلى وجوه الناكلين كآبةٌ ... وعلى وجوه الناكلات رَغامُ

تلك حادثة من الحوادث الكبيرة التي أثارت الشعور في مصر ، وأثارت الرأي العام في العالم ، وقد أثارت شاعرية حافظ ثم أثارت شاعرية شوقي . على أن الباحث المنصف يرى قدرة حافظ في تصوير هذه الحادثة فقد وفّق في إبراز صورته مكتملة لعناصر القوة والحركة على حين نجد صورة شوقي ينقصها ذلك ، وكما وُفّق حافظ في إبراز صورة هذه الحادثة فقد كان السبّاق الى تسجيلها والتأثر بها .

وداع كرومر

وفي ابريل سنة ١٩٠٧ استقال اللورد كرومر من منصبه فودّعه الشاعران بقصيدتين ، فأما قصيدة حافظ فهي عندي أقرب الى المقال الصحفي يريد قائله أن يجعل من نفسه مؤرخاً ، يعرض شتى الآراء ، وكذلك شاء حافظ أن يحمّل الشعر في هذا الظرف هذه المهمة ، فكان في هذا مسجّلاً فاته الشعور كما أخطأه الإحساس الوطنيُّ ، فهو بعد أن يذكر لكرومر ما يراه من فضل ، قائلاً إننا لسنا « أمة تجحد اليدا » يعود الى ذكر أقوال المهاجمين لسياسة كرومر ويختم قصيدته بهذه الأبيات :

فهذا حديث الناس والناس ألسُنٌ ... إذا قال هذا ، صاح ذاك مفنّدا
ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم ... لسجّلتُ لي رأياً وبُحتُ بمقصدا

ولكنني في معرض القول هائبٌ أضاف الى التاريخ قولاً مخلّدا
فأيها الشيخ الجليل تحيّةٌ وبأيها القصر المنيف تجلّدا
إن غاب هذا الليث عنك لطالما لقد لبثت آثاره فيك هُجّدا

وأما قصيدة شوقي فهي أقرب الى روح الشعر وكانت غضبة على كرومر للموقف الذي وقفه في حفلة وداعه وتجسّمه على أهل هذا البلد وإهانته الخديو اسماعيل بدون أن يراعي شيئاً من المجاملة لابنه الذي حضر حفلة التوديع وهو الأمير — السلطان فيما بعد — حسين كامل . ولذلك نرى أن قصيدة شوقي قصيدة العاطفة بينما نرى قصيدة حافظ أقرب الى الصناعة . وليس أدلّ على شدة السخط عند شوقي من هذا البيت في قصيدته الذي يظهرنا على أنه كان ملساقاً بعاطفته:

لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداءُ المياءُ وحيلا

على حين قال حافظ في تخاذل عجيب يخاطب كرومر بهذه الأبيات :

أيمنّا فلم يسلك بنا الخوف مسلكاً وهدنا فلم يطرق لنا الدّهرُ مرقدا
وكنتَ رحيم القلب تحمي ضعيفنا وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا
ولولا أسيٌ في دنشواي ولوعةٌ وفاجعةٌ أدمتْ قلوباً وأكبُدا
ورمتْيُكَ هيماً بالتعصب غافلاً وتصويرك الشرقيّ غرّاً مجرّدا
لذُبنا أسًى يوم الوداع لأننا نرى فيك ذاك المصلح المتودّدا

على أن هوفيًا كان منصفاً للتاريخ القوميّ حين ردّ على كرومر بأنه إذا فاخر بشيء من العمل في سبيل تقدّم هذا البلد فان هذا البلد لم يعدم وسائل الإصلاح في عهد محمد علي وفي عهد اسماعيل قبل ان يصاب الوطن بالاحتلال الانجليزي . في حين أغفل ذلك حافظ. ويظهر ان حافظاً أحسّ أن قصيدته هذه قد فقدت عنصر الشعور الوطني الصريح، فلمّح في قصائد أخرى بعد ذلك الى مساوىء العهد الراحل ولم يجعل عرض هذه المساوىء منسوباً الى آخرين كما حاول ذلك في قصيدته التي ذكرنا شيئاً منها ، بل عرض هو هذه المساوىء بإحساسه ورأيه . ونحن لا نستطيع تعليل مسلك حافظ في هذا الموقف مع إنه لم يكن مقيداً بشيء ومهما يكن من شيء فإن هذا الحادث لم يجد فيه الفنّ الشعريّ عند الشاعرين أثراً

يمتدُّ به الاعتداد الذي يجده في أشعارها في حوادث أخرى . فلننظر في شيء آخر من الاحداث التي لقيت من فيض قريحتيهما ما هو جديرٌ بالخلود والبقاء .

وفاة مصطفى كامل

في ١١ من فبراير ١٩٠٨ خفق قلب مصر خفقة الجزع لمصاب البلاد في وفاة زعيمها الشاب مصطفى كامل باشا الذي بعث الحركة الوطنية في هذه البلاد بعد خمود ، وأيقظ الجهاد في النفوس بعد طول هجود ، وأقضَّ مضجع الغاصب وكان قد اطمأنَّ الى أن العزم في نفوس المصريين قد فتر ، وان روح الكفاح فيهم قد همدت ، وان شعب وادي النيل قد استكان الى حالته ، حتى هاءت عناية الله بكنانته أن يستيقظ هذا الشعب — الذي شيب الزمان ولم يشب — على صوت جمع كل معاني القوة والفتوة ومضاء العزم ورزانة القلب والضمير واليد واللسان في إهاب شابٍّ هو الفصلة المتقدة ، تخفق لسدى صوته كلُّ قلب ، وتحرك لندائه أبناء الوادي مستيقظين كما يستيقظ على ضوء الصباح كل حي .

ولكن هذه الشعلة من الوطنية التي كانت تحترق لتضيء الطريق لصابرين لم ترحم نفسها في بلوغ هدفها ، فكان مصطفى لا يسمع نداء غير نداء وطنه ، ولم يستجب لنداء الجسد في حقه من الراحة لأنه لم يعرف الاستسلام واليأس . وهو الذي علم أبناء الوادي أن لا حياة مع اليأس وان لا يأس مع الحياة .

لذلك كان موت هذا الزعيم الشاب خطباً جسيما روّعت له البلاد واصطكت لهوله الأسماع ووجفت القلوب ، واهتزت المشاعر فتدفقت قرائح الشعراء في رثائه ، ولا عجب فقد أحيا الشعر في البلاد .

وقد برزت من مراثي الشعراء فيه — يومذاك — قصيدة شوقي التي يقول في مطلعها :

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتمٍ والدّاني

وهذه القصيدة من عيون شعر الرثاء عند شوقي ، وقد صوّر فيها في دقة تامة إحساسه المتفجع في فقد صديق الصبا والشباب ، وصوّر آخر لقاء وإياه وهو يعوده في مرضه الاخير تصوير الأخ المفجوع في أخ عزيز . ولكن هذه القصيدة على دقة الإحساس فيها تخلو

من تناول حياة القتيد السياسية تناولاً يجعلها صورة الراحل . فهي من هذه الوجهة يمكن أن يقال إنها مرثية لصديق عاديّ ، ولم يكن مصطفى بالمجرد العاديّ في الناحية التي نمع فيها اسمه ، وهي الوطنية المتأججة .

كان على شوقي أن يصور هذا الجانب في الفقيد وأن يجلوها كل الجلاء لتكون الصورة واضحة المعالم عن سياسي كانت حياته كلها جهاداً وكفاحاً وإقلاقاً لراحة الغاصب وإشعالاً لنار الوطنية في النفوس ، وتطرفاً في هذه الوطنية .

وكان على شوقي — وقد زامل الفقيد في مراحل نموّه — أن يصوّر هذا الشعور الوطنيّ وهو ينمو مع صديقه حتى بلغ به هذا الحدّ من العظمة واسترعى أنظار الناس إليه ليس في مصر حسب ، وانما في شتى بلاد العالم .

كان عليه أن يتناول هذا الجانب من حياة الفقيد في مرثيته ، ولكنه على الضدّ من ذلك كان حذراً في مسّ هذا الجانب ، ما يكاد يقرب منه حتى يبعد عنه ، وما يكاد الموقف يجرّه الى ذكر ذلك حتى يعود أسرع ما يكون الى التخلص من هذا الخاطر ، فهو حين يقول :

هل قام قبلك في المدائن فاتحٌ غازٍ بغير مهنّدٍ وسنان ؟

يجمّل لمن يسمعه أنه سينتقل الى جهاد هذا البطل الذي أيقظ في نفوس أبناء الوادي روح الوطنية وآثار عزيمتهم للكفاح والجلاد ، وكانت خطبه ومقالاته وصحفه مدرسة للوطنية يتخرج فيها شباب الأمة وقد عرفوا معنى الحياة ، وان الشاعر سيذكر كل ذلك صريحاً واضحاً . ولكن لا يلبث السامع أو القارئ أن يجد الشاعر يقول بعد هذا البيت :

يدعو الى العلم الشريف وعنده إن العلوم دعائم العمران

وبذلك يتخلص من شجو السياسة قبل أن يقوده الى ذكر شيء من ذلك في المرثية ، وينتقل فيتكلم في نواحٍ أخرى من حياة الفقيد حتى تقوده العاطفة المتقدة مرة أخرى الى غير ما يقصد فيقول :

عوفيتَ من حرب الحياة وحربها فهل استرحتَ أم استراح الفاني

يا صاحبَ مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فنمْ بأمان

اخلع على مصر شبابك عالياً والبس شباب الخلد والولدان

فلعلّ مصراً من شبابك ترتدي عجلاً تنيهُ به على البلدان
فلو انّ بالطرمين من ذوماتها بعض المضاء تحرّك الطرمان
علّمتَ هيمان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الديّان

وهنا يتوقع السامع أن يجد الشاعر قد اقترب من أبرز النواحي في حياة مصطفى كامل — ناحية الوطنية التي لا تعرف المهادنة أو المسالمة في تلك البقعة أو الحركة التي أفضت بمنهج الغاصب وزعزعت سلطان حميد بعد حادثة دنشواي ، وأنّ الشاعر سيضرب على الوتر الحساس في هذه الناحية ، ولكن شوقيًّا ينوب من هذه العاطفة التي تسوقه الى ما لا يقصد فيقتضه ، ويبتعد عن هذا ويقول ليختم المرثية :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أبرُّ على عظامك حانِ
أقسمتُ أنك في التراب طهارةٌ ملكٌ يهاب سؤاله الملكان

ولعلّ سبب هذا الحذر مركز الشاعر من القصر — كما قلنا عند الكلام على موقفه من حادثة دنشواي — ومراعاته لظروف خاصة هي أنّ العلاقة القوية التي كانت بين الخديو ومصطفى كامل والتأييد الذي كانت تلقاه الحركة الوطنية من محمد قد اعترافها في السنوات الأخيرة من حياة مصطفى شيءٌ من التوتر فالجفاء ، فكان على شوقي أن يكون حذراً في الرثاء فلا يظهر شعوره في هذه الناحية لفقد الزعيم الوطني وإنْ أظهر شعوره بالألم والتفجع لموت الصديق الذي كان يهتف بقصائده ويجلّ فوق النزاعات مكانه — على حدّ تعبيره — وقد صوّر شوقي في أبياته التالية معهداً رائعاً لتفقيد في مرضه حيث يقول :

ولقد نظرتُك والردى بك محدقٌ والداءُ ملءُ معالم الجثمانِ
يبغي ويطغى والطبيب مضلّلٌ فنطٌ وساعات الرحيل دواني
ونواظر العُوّاد عنك أمالها دمعٌ تعالج كتمه وتعاني
تملي وتكتب والمشاغل جمّةٌ ويداك في القرطاس ترتجفانِ
فهششتَ لي حتى كأنك عائدي وأنا الذي هدّ السقامُ كياني
ورأيتُ كيف تموت آساد الشرى وعرفتُ كيف مصارع الشجعانِ
ووجدتُ في ذاك الخيال عزائماً ما للنوى بدكدكتها يدانِ

وجعلتَ تسألني الرثاءَ فهاكه من أدمعي ومرائري وجَناني

فإذا كانت الظروف هي التي دعت شوقيًّا إلى أن يكون حَذِراً في رثاء مصطفى، فإننا نرى بعد ذلك كيف وفّى شوقي حقَّ صديقه الزعيم الوطني بعد أن خلص من قيود الوظيفة وأغلال الظروف.

فقد انتهز شوقي فرصة الذكرى السابعة عشرة للتقيد — أي في سنة ١٩٢٩ — وكانت البلاد قد تفرقت شيعاً وحزباً في النفوس دبيب التنافر والخُلف فقال شوقي:

إلامَ الخُلْفُ بينكمُ إلاما؟! وهذي الضجّةُ الكبرى علاما؟!

وهذه القصيدة من أروع قصائد شوقي، وهي الدليل على امتلاكه ناصية القول والتعبير عن آمال المصريين من حافظ في الدور الأخير من حياتيهما، أو على الأصح بعد عودة شوقي من منفاه في سنة ١٩٢١ واستكانة حافظ الى قيده وصمته.

فلقد صوّر شوقي في هذه القصيدة العيوب التي وقع فيها القادة ودعت الى تأخير قضية الوطن.

* * *

والى جانب هذا التصوير أحسّ شوقي بأن الأسباب التي حالت بينه وبين الوفاء بحق صديقه الزعيم الوطني مصطفى قد زالت فصوّره في هذه القصيدة أروع صورة، صوّره غير حذرٍ ولا متقيد بظروف فاستطاع أن يعطي الصورة الصادقة عن أبرز ناحية في حياة مصطفى، وهي التي لم يصوّرها في مرثيته قبل سبعة عشر عاماً... قال — وهذا ما يعنينا من هذه القصيدة الآن:

شهيدَ الحق لم نرَهُ يتيما بأرضٍ ضيّعت فيها اليتامى
أقام على الشفاه بها غريباً ومرّ على القلوب فما أقاما
سقيتَ فلم تبت نفسٌ بخير كأن بمهجة الوطن السقاما
ولم أرَ مثل نعشك إذ تهادى فغطى الأرض وانتظم الانا ما
تمثّل همةً، وأقلّ ديناً وضمّ مروءةً وحوى زماما

وما أنساك في العشرين لما ... طلعت حياتها قرآ تماما
يشار اليك في النادي وترمى ... بعيني من أحبّ ومن تعامى
إذا جئت المنابر كنت قسًّا ... اذا هو في عكاظ علا السناما
وأنت ألدّ للحق اهتزازاً ... وألطف حين تنطقه ابتساما
وتحمل من أديم الحق وجهاً ... صراحاً ليس يتخذ اللثاما

* * *

تلك سورة صادقة لوطنية مصطفى ونبوغه ، وهذي صورة لجهاده يرسمها شوقي في هذه القصيدة أيضاً :

أتذكر قبل هذا الجيل جيلاً ... سهرنا من معلمهم وناما ؟
نهارُ الحق نُسْمِعُنا اليهم ... هكيمَ القيصرية والمجاما
نواؤك كان يسقيهم بجامٍ ... وكان الشعر بين يديّ جاما
من الوطنية امتبقوا رحيقاً ... فضضنا من معتقها الختاما
غرسنا كرْمها فزكا أصولاً ... بكل قرارةٍ وزكا مداما
جمعتهمو على نبرات صوتٍ ... كنفخ الصُّور حرّك الرجاما
لك الخُطب التي غصّ الأعادي ... بسوْرتها وساغت للنُّدامى
فكانت في مرارتها زئيراً ... وكانت في حلاوتها بُغاما
بك الوطنية اعتدلت وكانت ... حديثاً من خرافةَ أو منامًا
بنيتَ قضية الأوطان منها ... وصيّرت الجلاءَ لها دعامًا
هززتَ بني الزمان به صبيًّا ... ورُعتَ به بني الدنيا غلامًا

* * *

وفي سنة ١٩٢٦ نظم شوقي قصيدة ثالثة في مصطفى هي خواطر أوحتها اليه ذكراه . ويمكن أن يُقال إنها ردّ على قصيدته السابقة التي تناول فيها خلاف الأحزاب . فقد نظم قصيدته بعد إذ كان الصفاء قد عاد الى النفوس ، وتناسى الزعماء خلافاتهم ، وعادوا

أحقادهم ، واجتمعت كلمتهم ، وتآلفت أحزابهم صفًّا واحداً . فهو يتذكر في هذه الآونة مصطفى ويقول :

أضرِمَ الحقُّ ذائدٌ والى « مصطفى » افتقرْ

ويخاطب أهل وطنه قائلاً :

أيها القوم عظّموا وامنعوا الأمّ والحجرْ
اذكروا الخطبة التي هي من آيهِ الكُبرْ
لم يرَ الناس قبلها منبراً تحت مختضِرْ

ويلتفت الى زميل صباه فيقول :

يا أخا النفس في الصبا لذةُ الروح في الصفرْ

ويهتف به بعد أبيات :

قم ترَ القوم كتلةً مثل ملمومة العشَرْ
جدّدوا ألفة الهوى والإخاء الذي غطرْ
ليس للخلف بينهم أو لأسبابه أثرْ . . .

* * *

تلك مراثي شوقي في مصطفى . . . تبلغ المرثية الثانية منها حدّ الإبداع لأنها صورة حقيقية لذلك الزعيم ، أطلق فيها الشاعر نفسه على سجيتها ، ولم يتقيد فيها بشيء . ولولا ذلك التنبه والحذر اللذان أخذ نفسه بهما في مرثيته الأولى لارتفعت الى مرتبة المرثية الثانية أو فاقتها ، ولجمع فيها الى التفجع الأليم وصدق الاحساس مطابقة الصورة لصاحبها ، ولكان لها الى جانب روعتها في صدق الشعور جانبُ روعة الصدق في التصوير ، ولكنها فقدت هذا الجانب وخلت منه ففقدت أهمَّ جانب من رسالة مصطفى التي اشتهر بها وعاش لها ومات من أجلها ، وهو الجانب الذي يلتمسه الباحث الناقد عند الشاعر في تلك المرثية فيعز عليه .

حسن كامل الصيرفي